بسم الله الرحمن الرحيم

رحيل علامة الأدب القديم في بلاد الشام

محمد شفيق البيطار

كتبها: د. **رغد ياسين الصبَّاغ**

الرَّاحِلونَ، وما أدراكَ مَنْ رَحَلُوا!
لو كانَ يُمكِنُ في العَينَين قد نزَلُوا

رحلَ علَّامةُ بلاد الشَّام في الأدب القديم، وركنُ جامعة دمشقَ المَكِين، المحقِّقُ المَجمَعيُّ المتواضعُ، معلِّمي المِفضالُ الدكتور **محمد شفيق البَيطار**، بعد مسيرةٍ حافلةٍ من العطاءِ والبذلِ والتَّحقيقِ والتَّدريس.

اليومَ تبكيه كلُّ زاويةٍ في قسم اللغة العربيَّة، تبكيه أناشيدُ طفولتنا العذبة التي قضى في تحبيرها دهرًا، ويبكيه طلَبَتُه المحبُّون الذين لأجلهم آثرَ أن يبقى سندًا وملاذًا على أن يسافرَ وينالَ عَرَضًا من الدُّنيا.

كان أنْ مَنَّ الله عليَّ فحَظِيتُ بإشرافه في مرحلتَي الماجستير والدكتوراه، فتعهَّدَني بأُبوَّة حانية، وكان بي رفيقًا شَفيقًا كاسمه، وأسبغَ عليَّ من الفضل والعِلم والحِلم ما لا يحيطُ به الثَّناء. وليتَ المَقامَ يُسعِفُ لأسرُدَ كلَّ ما رأيته من جميلِ دَماثَتِه وطِيب خُلُقِهِ وغزير علمه، لكن يُمكن بكُلَيماتٍ أن أقول: كان في العِلم فريدَ عصرِه ونسيجَ وَحْدِه، علَّامةً موسوعيًّا بحَّاثة. لم يكن يَحْزُبُني أمرٌ أو تُشكِلُ عليَّ مسألة إلا وجَدتُّ عندَه ما يشفي الصَّدرَ ويُرْوي الغَليل.

وكان في الخُلق أنبلَ الناس وأكثرَهم تواضُعًا، لا تغادرُ بسمتُه العذبة مُحَيَّاه. وكان شديدَ الغَيرة على العربيَّة والإسلام، يقول الحقَّ لا يخافُ في الله لومةَ لائم، وكان بعيدًا كلَّ البُعد

عمَّا يتهافتُ عليه الناسُ من حبِّ الثناء والتشَوُّف إلى الظُّهور، ولو قُدِّر للإخلاص في أيَّامنا أن يتجسَّدَ في رجلٍ لتجسَّد في شخصِه. وكان مثالًا يُحتَذى في الوفاء وصِدق الودِّ والإخاء، إذا ما ذكَر أحدٌ أساتذتَه وشيوخه. وقد روى لي فصولًا مشرِّفة في تتلمُذه على أستاذه د. **عبد الحفيظ السَّطلي** رحمه الله.

وكان مع طلَّابه أرأفَ بهم من أنفسهم، حريصًا على ما فيه خيرُهم وصلاحُهم، ويبدو أنَّ اشتغاله الطَّويل بالشِّعر الموجَّه للطُّفولة والأطفال أورثه رِقَّةً وتَحْنانًا. ولعلَّ ما لا يعلمُه كثيرون أنَّ عمله لم يكن مقتصِرًا على نَظْم شارات البرامج والتدقيق فيها لغويًّا، بل كان حارسًا أمينًا لعقول الجيل، مراقبًا حثيثًا لما تنطَوي عليه تلك الأعمالُ الأجنبية من أفكارٍ وصورٍ ورموزٍ لا تُلائم ثقافتَنا العربيَّة الإسلاميَّة، فكان يعملُ بصبرٍ على متابعتها وتقويمها وتهذيبها؛ لتُقدَّم إلى الطفل لا تشوبُها شائبة.

وأمَّا صِلتي به ومواقفي معه فلا أدري من أين أبدأ في الحديثِ عنها، وماذا أقول! والمواقفُ والذِّكرياتُ تجدِّد الحَزَن وتُثير الشُّجون!

عرفتُه في السنة الأولى يومَ دخَلتُ الكلِّية أوَّلَ مرَّة سنة ٢٠١٢، وكان اسمُه محبَّبًا إلينا؛ لأنه رافقَ طفولتنا، واشتدَّت أعوادُنا ونحن نقرأُ ذلك الاسم كلَّ يوم على شاشاتنا، فكنَّا في غاية الحماسة لنتعرَّف تلك الشَّخصِيَّة. فلمَّا سمِعنا منه محاضراتِه في الأدب الجاهليِّ كشفَ عن علم غزيرٍ، وشخصيَّة قلَّ أن يُرى لها نظير، مع تواضُع ورِفْقٍ بالطُّلَّاب، فلم تكن القلوبُ تُقبِل على أحدٍ من الأساتذة وتُجمِع على أحدٍ إقبالَها وإجماعَها عليه.

وقد اشتَهَر عنه بين الطلَّاب **أنه الأستاذُ الذي لا يُظلَم عندَه أحد**، وكان سَخيًّا بالدَّرَجات على الطلَّاب المُتفوِّقين، وأذكر أنني أحرَزتُ درجة ٩٥ في مادَّته، وكانت تلك الدرجةُ أعلى من توقُّعاتي.

وحين تخرَّجتُ سنة ٢٠١٦ كان يشغَلُ رئاسةَ قسم اللغة العربيَّة، فلمَّا علِمَ أنني الخِرِّيجةُ الأولى استدعاني واحتَفى بي وأكرمَني، أكرمَ الله نُزُلَه. وذكرَ لي أنَّ اختصاص المُعيد لهذا العام هو الأدبُ الجاهليُّ، فأجَبتُه أنني أميلُ إلى دراسة النحو واللغة، وأفضِّلُ متابعة الدِّراسة

وَحْدِي بمَنأًى عن القُيود التي تطوِّق أعناقَ المُعيدين. فقال لي: (بل أطلبُ لك الاختصاصَ الذي تحبِّين، ولكنَّني أنصَحُكِ نصيحةَ مُشفِق، لا تتركُي المُعِيديَّة، فالجامعةُ بحاجةٍ إليك، بحاجةٍ إلى ذوي الأخلاق والهِمَم. وكنتُ أودُّ إعدادَ من يُساعدني على تدريس الأدب الجاهليِّ؛ إذ لم يبقَ في القِسم غَيري، فانظُري في أمرك، واستَخِيري واستَشِيري). فلمَّا راجَعتُه بعد أيَّام وأخبرته بقَبولي الوظيفةَ والاختصاص، قال لي: (توكَّلنا على الله، سَلي الله التوفيقَ والسَّداد، وأخلِصي له النيَّة قبلَ كلِّ شيء). وكانت تلك أُولى وصاياه وأغلاها.

ثم وجَّهَني بعد ذلك إلى جمع أشعار القبائل وتحقيقِها، وكان له القِدْحُ المُعَلَّى، فصَبَر على تعليمي كلَّ ما يخصُّ التحقيقَ من دقائق الأمور إلى عِظامها، وأذكر أنه في البدايات علَّمني الطريقةَ المُثلى لجمع المادَّة وتنظيمها، وصناعة فِهْرس المصادر، والاستخدام الصَّحيح لعلامات التَّرقيم! علَّمني كلَّ ذلك بحِلمٍ وصَبرٍ وتلطُّفٍ أبَوِيّ، وكانت لديه عنايةٌ منقطعة النَّظير بالدقائق، وربَّما قضَينا ساعةً بأكمَلها في محاولة الوصول إلى ضَبْط حرف! ولا أنسى سرورَه يوم أتيتُه بأُولى محاولاتي في تحقيق شعر أحدِ شُعراء خَثْعَم، وقال لي: (الآنَ استقامَ مَنهَجُك، فاستمِرِّي على هذا النحو).

ومضَت الأيامُ سِراعًا وأنا أنعُم بالنَّهَل من مَعِين عِلمه الذي لا ينضُب، وكنت كلَّما التقَيتُ به يزداد عَجَبي، كيف أمكنَ لرجلٍ أن ترسَخَ في صدره علومٌ مختلفة وفنونٌ شتَّى، ويستحضرَ منها ما شاء عند الطلب؟! وأذكُر أنني سألته عن ذلك مرَّة فأجابني إجابةَ العالم المُتواضِع: هذا تراكمُ المَعارف على مدى الأيام، وبالأمس كنَّا طلَّابًا لا نعلَمُ شيئًا، وبالتَّحصيل والصَّبر ستَغدِينَ أفضلَ منِّي إن شاء الله.

ودارت الأيامُ وظلَّت أياديه البِيضُ سابغةً عليَّ، حتى إذا صِرنا على أبواب مناقشة الدُّكتوراه وطُبِعَت الأطروحة قال لي: (وَدِدتُّ أن تكونَ هذه الأطروحةُ آخرَ العُنقود، ولو كان الأمرُ لي لأعطيتُك درجةَ الشَّرَف). فذكَرتُ له أني لستُ أبالي أيَّ درجةٍ أحرزتُ بعدَ رضاه عن العمل! فهذه الشَّهادةُ أعلى وأغلى في نفسي من درجة الشَّرف.

وكانت أُولى كلماته يوم نلتُ درجة الدكتوراه، وفرَغنا من المناقشة: (الآنَ صارت أمانةُ الأدب الجاهليِّ بين يدَيكِ، فأحسِني أداءها). فتألَّمتُ يومئذٍ، وشعَرت أنَّ الكلامَ كلامُ مودِّع، لكن لم يَدُر في خَلَدي أنَّ الفِراقَ قريبٌ إلى هذا الحدِّ! وظلَّ يكرِّر عليَّ كلماتِه تلك حتى آخرِ لقاءاتي به. وكان آخرَ عهدي به قبلَ أن ينالَ منه المرضُ، يومَ الاثنين ١٨/ ١١/ ٢٠٢٤ الساعة التاسعة صباحًا في مكتبه الذي كان روضةً من رِياض العلم، وقِبلةً لمحبِّي اللغة والأدب؛ أساتذةً وطلَّابًا.

استقبلَني يومئذٍ بابتسامته التي لا تفارقُ مُحَيَّاه، وذكرَ لي أنه قد وصلَت إليه نُسخَتانِ من كتاب **"اختيارات ابن مسافر"** الذي حقَّقه وأخرجه مع خِلِّه الوفيِّ الدكتور مُقبِل التَّامِّ الأحمَدي، وأنه خصَّني بنُسخةٍ من النُّسخَتَين، فسُرِرتُ بذلك الإهداء وذاك الاختصاص أيَّما سرور. وقلت له نصًّا: يبدو أنَّ عَوارِفكَ عليَّ يا دكتور تأبى أن تنقَضي! فدَعا لي بالبَركة والنَّفع كدَأَبه، ووَدَّعتُه ومضَيت، ولم أكن أعلم أنَّ هذا اللِّقاءَ سيكون الأخير، وأنَّ هذه الهديَّة كانت تطييبًا لخاطري قبل رحيله عن عالمِنا.

رحمَه الله وأحسنَ إليه كما كان مُحسِنًا بجميع مَن حوله.

رحلَ بهدوءٍ وتركَ في القلوب غُصَّةً وجِراحًا لا تندَمِل، وهذا غَيضٌ من فَيْضِ أفضاله وجميل سَجاياه. وكم وَدِدتُّ أن يكونَ الثَّناءُ عليه في مَقامٍ غير مَقامِ الرِّثاء، لكنَّه من شدَّة إخلاصه لم يكن يطرَبُ إلى مثل هذا الكلام على الإطلاق.

أستاذي الفاضلُ، مُصابنا برحيلك جَلَلٌ جَلَل!

أُشهِدُ الله أنكَ بلَّغتَ الرسالةَ، وأدَّيتَ الأمانةَ خيرَ أداء.

جزاكَ الله عنِّي وعن العربيَّة وطلَّابها خيرَ ما جزى شيخًا عن تلامذتِه.

وعزاؤنا برحيلك ما نعلَمُه من حُسن سيرتك التي يشهَدُ لها القاصي والدَّاني، وتلك الكنوزُ الثمينةُ التي أفنَيتَ عُمرَك في استخلاصِها من بطون التُّراث. فإلى جنَّاتٍ ونَهَر، في مَقعَد صِدقٍ عندَ مليكٍ مُقتَدِر.

الخميس ٥/ ١٢/ ٢٠٢٤

الدكتور محمد شفيق البَيطار رحمه الله في مناقشة أطروحة الدكتوراه لتلميذته كاتبة المقالة بتاريخ ٢٤ أيلول (سبتمبر) ٢٠٢٤.